

التكوين

فيلبي، (الحاج عبدالله فيلبي) خبير الصحراء ومراقب بريطانيا العظمى قام بزيارة هذه المنطقة بغرض معين وهو جس نبض الشخصيات المحلية. وجاء من بعده السيد "انجرامز" وهو من كبار المسؤولين في عدن الذي استطاع أن ينتهز الفرصة السانحة في الخلافات بين السلاطين ورؤساء القبائل لكي يوسع سيطرة حكومته على هذه الإمارات.

مجلة الشرق الحديث

نوفمبر ١٩٣٧م

إن الأشياء ليست دائماً كما تبدو !!! وقد يكون من المفيد في بداية قصتي أن أشرح كيف أن رحلتي عبر أرض سبأ الحاملة قد تحققت تقريباً بسلسلة غريبة من المصادفات الرائعة. وكانت مساهماتي الشخصية الوحيدة في تلك العملية هي ما اعتدتُ عليه من عادة، نَمَتُ عندي من إقامتي لما يربو عن عشرين عاماً في الأراضي العريية، التنقل والترحال المستمر بحثاً عن مراعي جديدة. فلقد كنت دائماً متأهباً لمجاهة أي طارئٍ بأكبر قدر من الاستعداد مثل أي عرض يقدمه رجل واحد ويمكن اعتباره بالمقاييس الحديثة مجهزاً تجهيزاً جيداً للاستكشاف. بيد أن الربع الخالي كان يبدو كما لو أنه تاج ملائم لي بإحكام، وهدفٌ لطموحاتي كمستكشف. وكنت في الحقيقة أكثر من مستعدٍ للتقاعد بشرف والخروج من الساحة. فقد أتى عليّ حين من الدهر -بعد هذه المغامرة بلغ مني فيه التعب مبلغاً. كما أن الجزيرة العريية- وهذه حقيقة واقعة- لم تكن قد استنفذت بكل الوسائل كميدان للاستكشاف. وحين وقت اشتراك معشر الشباب في تلك المهنة. علاوة على ذلك، وكما لم يقصر أصدقائي في

الإشارة إلى ذلك بابتسامات متعاطفة، فقد أدى ما عُرِف عني من ارتباطي الوثيق بصداقة ابن سعود إلى تضيق مدى تجوالي. ولقد كانت هناك أجزاء من الجزيرة العربية لم أحلم قط برؤيتها: منها اليمن وحضرموت وغيرهما الكثير. ويبدو أن أصدقائي، مثل معزّي أيوب كانوا يعلمون عما يتحدثون. فليس هناك من داع للقلق بأي حال. هكذا كنت أرد على أصدقائي بابتسام.

وفي ١٩ ديسمبر ١٩٣٥م تم إيداعي رسمياً على رف أعمدة جريدة «بريطانيي العظمى والشرق». وكانت المناسبة مع إعادة إصدار، ربما للتعبير بلطف عن التذكير، بكتابي عن الربع الخالي، حيث قال كاتب المقال المجهول في ملاحظته ما يلي: - إننا قد نلاحظ هنا أنه على الرغم من احتمال انتهاء أيام استكشاف السيد فيليبي، إلا أنه لا يوجد أي سبب يجعلنا نفترض أن عصر تأليفه للكتب قد انتهى أيضاً. ولن يتخون من المدهش حقيقة أن يقوم بإصدار مزيد من الكتب في الوقت المناسب من مأواه بمكة. هذه الملاحظة كانت ستثير مثيوسلاه نفسه حتى يتخذ عملاً ما. ويبدو أن هذا الكتب يعلم ما يتحدث عنه. ومرة أخرى، وبعد حوالي أسبوعين من قراءتي لهذا الإعلان الودي، تبسّمت وأنا أشارك مع زوجتي وحدثنا، سرّاً، سوف يضع نظرية مرضي أو عجزي موضع الاختبار بالتمام. وفي الحقيقة قبل أيام قليلة من نشر هذه الكلمات في إنجلترا كنت أنا وزوجتي وكلانا على أعتاب الشيخوخة، قد وصلنا جدة في نهاية رحلة ذهاب وعودة، عظيمة، وبالتأكيد فريدة، من جدة إلى لندن، والعودة بالبر عبر ثلاث قارات. والحقيقة أننا قمنا بهذه الرحلة بالسيارة، ونكنا لم نكن أول من استخدم هذه العربات للاستكشاف. وكان الجزء العربي من الرحلة - وهو أول عبور لآخراً: أوروبية لشبه الجزيرة وآخر مرحلة في رحلة العودة من دمشق عن طريق الجوف وحائل وبريدة إلى الرياض - قد وفر لنا فرص الاستكشاف الجغرافي. وكان الياقي مجرد سفر عادي، على الرغم من أن السفر على طرق الأناضول وفي ليبيا قبل أن ينفذ موسوليني الطريق السريع كان قاسياً ويحتاج إلى براعة فائقة

مثل أي تجوال بالصحراء. وبالتأكيد لم أشعر أنني عاجز (بسبب الشيخوخة) كما يبدو أن الناس يعتقدون أنني يجب أن أكون كذلك.

ولكن الشباب كانوا قد بدؤوا يظهرون على الساحة ولم يعد عبور الجزيرة العربية بالعرض يمثل موضوعاً يثير العجب أو يلفت الانتباه والملاحظة. وقد تعرضت المساحات المجهولة من شبه الجزيرة لمحاولات الاكتشاف من أطرافها. كما أن الطائرات -وقد نفذ صبرها من خطوات الإبل البطيئة منذ العصور القديمة- وتزدي قليلاً حتى السيارات، كانت قد أنتجت بالفعل خرائط تصويرية لمناطق هائلة. بل إن النساء، اللاتي بقين في مكانهن الصحيح حتى الآن طبقاً لأحكام الفروسية والشهامة العربية القديمة، قد بدأت في غزو ميدان الرجال. فقد وصل ما لا يقل عن ثلاث نساء إلى حائ مؤخرأ اقتفاء لأثر الليدي آن بلانت وجيرترود بيل وزارت ثماني نساء أوروبيات الرريض نفسها، التي لم ترها أي مستكشفة من النساء قط قبل العقد الحالي. والآن ظهرت نجمات جدد في الجنوب يتحددين مجد السيدة ثيودور فنت الذي ذُبل. ولن أتحدث عن الأولى، السيدة إنجرامز التي خبأت بريقها حتى الآن تحت غطاء شهرة زوجها. والثانية كانت «فرايا ستارك».

وفي ١٦ ديسمبر ١٩٣٥م، أي قبل نشر الملاحظات المذكورة أعلاه في جريدة «بريطانيا العظمى والشرق» بثلاثة أيام فقط كانت «فرايا ستارك» تسحر مستمعيها في «الجمعية الجغرافية الملكية» بوصف زيارتها لحضرموت. وأشار السير بيرسي كوكس -الذي كان يترأس الاجتماع بصفته رئيساً للجمعية- إلى هذا البلد بأنه «هو المنطقة الواقعة شرق محمية عدن في جنوب الجزيرة العربية، حيث لم يصل إلى هناك حتى وقتنا الحاضر إلا رحالة قليلون نظراً لاعتراض الشعب على دخول الأجانب بلدهم». وبعد المحاضرة ذكر العقيد إم. سي. ليك السكرتير السياسي لعدن ملاحظة قال فيها: «لا نعتقد أنه من المعروف بصورة عامة أن حضرموت تشكل جزءاً لا يتجزأ من محمية عدن. وأنتم ترونها تظهر على الخريطة خارج المحمية بعيداً إلى الشرق...».

وسوف أحفظ بملاحظاتى على هذا الخلاف الابتدائي وأضعها بمكانها الملائم في هذا الكتاب. وما يهمني أكثر في هذه المناسبة هي الملاحظات التي أنهى بها السير بيرسي كوكس هذا الاجتماع المهم وهو يهنيئ فرياً ستارك على مجهودها الشجاع - على الرغم من أنه ليس ناجحاً - للوصول إلى شبة. وقال : «بالنسبة لي تعد رحلة من «المكلا» على طول المنطقة الداخلية، وعبر الحدود الغربية للجزيرة العربية الكبرى حتى الطائف رحلة رائعة من الرحلات، في ذلك الجزء الوحيد من شبه الجزيرة العربية الذي لم يُكتشف بالكامل». وكان السير بيرسي كوكس يدرك بالتأكيد عما يتحدث. كما أنه كان يعرف تمام المعرفة، قبل أن يتوفى وهو فوق السرج بعد ذلك بأربعة عشر شهراً فقط، أن الرحلة نفسها التي كان يتصورها في تلك الكلمات قد تم إنجازها كما يجب. ولكن أيام رئيسي القديم خلال الحرب في ما بين النهرين لم تطل لسمع التفاصيل الكاملة لتلك المغامرة، وقد كان سعيداً لعلمه أنه تم إنجازها بشخص اختاره هو بنفسه لأداء خدمة خاصة في الجزيرة العربية قبل عشرين عاماً^(١).

وملاحظاته التي قيلت في هذه المناسبة، ولم أعلم بها حتى مارس التالي، لم يكن لها أي ارتباط أو تأثير بأي حال على خططي. وفي الحقيقة قبل أن تقال تلك الملاحظات كنت أنا وزوجتي قد وصلنا إلى الرياض في ١٠ ديسمبر أثناء رحلة عِدتنا من إنجلترا التي ذكرتها سابقاً. وفي اليوم التالي لوصولنا استدعاني الملك عبدالعزيز لمقابلة خاصة، وسألني: «هل تود الذهاب إلى نجران؟» فأجبت: «في الحقيقة نعم» فواصل كلامه قائلاً: «حسناً، سوف تذهب وهناك الحدود الجديدة التي سيتم ترسيمها بالخرائط. سوف تذهب عندما يكون الوقت ملائماً. سأكون أنا في مكة للحج.

(١) يشير فيليبي هنا إلى أول مهمة قام بها إلى داخل الجزيرة العربية في عامي ١٣٣٦هـ - ١٣٣٧هـ التي نشر تفصيلاتها في التقرير الذي كتبه عن الرحلة وقام الدكتور عبدالله العثيمين بترجمته ونشره بعنوان: بعثة إلى نجد. لمزيد من التفاصيل عن الرحلة انظر: عبدالله الصالح العثيمين، بعثة إلى نجد، الرياض ١٤١٨هـ. (المراجعون).

وعتمة أنتهي من عملي هناك سوف تأتي معي إلى عشيرة. ومن هناك ستبدأ رحلتك. جهه نفسك للرحلة. متى تذهب لجددة؟». فقلت: «غداً». وشكرت له عطفه الكريم وترت المكان وخرج. وبعد ذلك جاء الحجاج وذهبوا، وانهمك الملك في الشؤون المترتبة على ذلك. وكنت أراه كل يوم، أتناول معه الغداء والعشاء كالعادة يومياً، وأحضر جلساته في الصباح وبعد الظهر والمساء. ومضى مارس حتى إبريل، وأوشك أبري على الانتهاء. ولم ينس كلانا بينت شفة عن الاتفاق الذي عقدناه بالرياض. وسارت الاستعدادات لرحيل الملك على قدم وساق. وفي اليوم السابق لرحيله للإقامة لمدة شهر في مخيم بعشيرة استدعاني إلى جواره وسألني: «هل نسيت؟» فقلت: «لا» فقلت: «هل أنت مستعد؟» فأجبت: «نعم» فأردف: «سوف نركب لعشيرة غداً إن شاء الله». وبقى هناك، لمدة شهر، مع زيارة متقطعة لمكة وجددة. مكثت في المدينة المكونة من الخيام العظيمة بين سكانها البالغ عددهم ٤٠٠٠ شخص. وكانت هذه الأيام مثيرة مفعمة بالحياة والنشاط أيضاً والعالم يمر بمخاض ميلاد إمبراطورية جديدة. وكاد المذيع (الراديو) يفيدنا بالأخبار أولاً بأول. وجاءنا سقوط أديس أبابا وبالتالي ضم أثيوبيا للإمبراطورية الرومانية كقصف الرعد في عاصفة تستجمع قواها. وساد شعور بقوة القضاء والقدر على مخيم الملك، ولكن الشؤون اليومية سارت كالمعتاد. وبعثتي لم تغب عن الأذهان. ففي أحد الأيام سألتني الملك عن البرنامج التقريبي لرحتي المقترحة. فقلت: إنه يكفيني فترة خمسة شهور، منها نزهة في الربيع الخالي بحثاً عن حيوان البقر الوحشي (Oryx)، على أن يبدأ سير الرحلة على مهل من الطاقف عبر المرتفعات إلى أبها. وبناءً على اقتراح الملك تم تأجيل هذا البند لوقت آخر لصالح إنجاز تقدم سيرتي بالسيارة نحو أبها. وقال الملك: «لن تضع وقتاً في الوصول إلى نجران. فهناك بعثة من الرجال المتعلمين من مصر موجودة الآن باليمن. وطلبوا تصريحاً للدخول لبلدنا عبر نجران وقد منحتهم إياه. وسوف يكونون أول من يصل هنا إذا تلكأت في الطريق». وحيث إن الحدود سيتم ترسيمها في خرائط عبر

التلال الوعرة بعسير وتهامة فقد تم تخصيص معظم الوقت المتوفر بطريقة غير مؤكدة لنجران. وبعد ذلك أحال صاحب الجلالة البرنامج -بعد التعديل- إلى بعض وزراءه لإبداء ملاحظاتهم. ومسألة احتمال رفع دعوى مطالبة من قبل التابعين لي ضد الحكومة في حالة وفاتي أثناء البعثة تم التغلب بسهولة عليها من خلال توقيع خطاب رسمي بالتعويض. وقبول الهدف العام لرحلتي، الصيد، والاستكشاف، ويسم خريطة الحدود، بالرضا والقبول من الجميع. ومع ذلك - على كل حال - ثار اعتراض -مبني على حق تماماً- على الأمور المالية. وبدون استشارتي قرر الملك أن يتم تمويل بعثتي من قبل الحكومة، التي طلبت بصورة معقولة تماماً، ما دامت قد وافقت على التمويل من حيث المبدأ. تقديراً للمبلغ المطلوب على الأرجح. وذات صباح أرسل الملك في طلبي لمناقشة هذه الأمور، وسألني: «كم ستحتاج من النقود؟» فأجبت: «لا شيء»، فعندي كل ما أحتاج إليه، ولا أريد لرحلتي أن تورط الحكومة في أي تكلفة مالية. فلو كنت ذاهباً إلى أوروبا لكان لزاماً عليّ أن أنفق مبلغاً معيناً من المال. هذا المبلغ سوف يكفي للوفاء بنفقاتي في هذه الرحلة».

وكان عندي من الأسباب الشخصية الجادة ما يجعلني أرفض أن أورط الحكومة في أي مسؤولية محددة عن بعثتي. إن تمويلها قد ينطوي ضمناً على مثل هذه المسؤولية، وكان وزير المالية على الأقل مسروراً بعدم اضطراره لتوفير أموال لأبديها. كما كانت وزارة الخارجية البريطانية لديها من الأسباب الكافية في حينه لتبارك بعد نظري. ولتلطيف الأجواء وتسهيل الأمور ترك الملك هذا الأمر ينتهي حيث استقر الرأي. وقدم وزير المالية عرضاً بصورة سخية حيث قبلت عربة (لوري) لتحمل الإمدادات الضرورية من المواد البترولية التي لن نجد لها بالطريق إلى أن نصل نجران. وكان المخيم قد تم إقامته يوم ١٩ مايو، وبدأ الجزء الأعظم من المركب رحلته تتجهماً نحو الرياض مباشرة، بينما مضى الملك مع جماعة صغيرة فقط إلى الآبار المحذنة القريبة ليمكث هناك ليلتين.

ومن هناك بدأت مغامرتي في صباح ٢١ مايو^(١). وعندما ذهبت للاستئذان من الملك وجدته يُلمي خطابات لأحد سكرتارته الخاصة. وكانت موجهة إلى عدد من الحُكَّام والمسؤولين المحليين الذين تقع مدنهم في طريق رحلتي، وكانت تحتوي على أوامر موجزة ومهذبة لعمل كل ما يقدرُونَ عليه لتعزيز رغبتِي وسروري. وسألني الملك: «أهذا كل ماتريده؟» فأجبت: «نعم هذا كل ما هناك» وأضاف قائلاً: «إذن على بركة الله !!» وهذه عبارة معتادة للإذن ببدء رحلة ما من الرحلات ثم واصل قائلاً: «ولكن قف !! هل عندك أي نقود؟» فأجبت: «كثيراً» فنظر لي نظرة فيها شيء من الشك وألح في السؤال: «كم من النقود معك؟» فأجبت: «مائتا جنيه من الذهب ومدت قليلة من الريالات». فقال: «هذا شيء طيب» ثم التفت إلى سكرتيره وأردف: «إنه معتاد على بدء الرحيل وليس معه شيء، وينسى أنه، حتى إذا استطاع أن يعيش بالكفاف أن رفاقه لا يستطيعون ولن يفعلوا». ولقد شعر بالتأكد بكل راحة عندما تيقن أنني قد ادخرت بعض المؤونة للطريق. وإذا كنت خالي الوفاض لكان قد أصرّ عليّ أن آخذها من مخصصاته الشخصية. وكان عندي بالطبع تصريح للحصول على مبلغ من المال من حين لآخر من خزانة الحكومة في طريقي مقابل فواتير تُرسل إلى جدة. وعلى أي حال فقد كانت موافقة الملك على دعمي مادياً بمثابة ملاك يحرسني طول مغامرة لا يمكن التنبؤ بمجراها. وبدونها لم أكن أستطيع بدء رحلتي أبداً أو أنني لن أرجع منها أبداً.

وعندما ذكر صاحب الجلالة هذا المشروع لأول مرة بالرياض في ديسمبر برز في ذهني عاملان اثنان فوراً وبصورة تلقائية كأساس لمشروعي. ويطيب لي أن أقول: إنني حتى هذه اللحظة لم أفكر أبداً أن تكون هذه الرحلة في حدود الممكن - ناهيك عن احتمال تنفيذها. ولكن ذكر الملك لنجران جعل عقلي يتخيل صورة أراض قصية

(١) ٢٠ مايو ١٩٣٦م الموافق ١ ربيع الأول ١٣٥٥هـ. (المراجعون).

ونائية. لماذا لا يجوز أن يكون هناك أي نهاية لمثل هذه الرحلات والجولات إلى «أقصى الشمال» نفسه؟ وكنت أعلم طبعاً من قبل أن فريا ستارك قد فشلت في الوصول إلى شبوة، وأعلنت أنها في كامل عزلتها وقوتها. وأنا نفسي كنت قد آتيت للرياض من عرض البحر المتوسط. وكنت بالفعل على مقربة من المحيط الهندي، وتقع شبوة في مكان ما على طريقي. وعلى نطاق متضاعف في خيالي أبعاد اقتراح الملك، ولكنني لزممت جانب الحذر حتى تظل مثل هذه التخيلات لنفسني فقط، فربما ثبت أنه لا يمكن تنفيذها بالكامل، وإذا أخفقت في الوصول لشبوة يمكنني دائماً أن أتظاهر بأنني لم أنو ذلك أبداً. وعلى أية حال أصبحت شبوة النجم الهادي الذي رنو إليه سراً منذ تلك اللحظة. ومن هناك كانت حضرموت - بمدنها التي تناطح السحاب - لا تبعد إلا مرمى حجر. ووراءها بمسافة غير بعيدة كان هناك البحر يومئذٍ أيّ ويدعونني بإغراء - ولم يُعرف حتى الآن أن كائناً بشرياً قد سار براً من البحر المتوسط حتى المحيط الهندي، وهكذا سأكون أول من يفعل ذلك.

وفي نطاق هذه الحدود القصية التي نشأت في أحلامي كان هناك ما يكفي لإنجازه في الوعي. إن نجران نفسها قد زارها ذات مرة رجل أوروبي، وهو فرسي يدعى جوزيف هاليفي^(١) منذ ما يقرب من سبعين عاماً. كما أن الحدود الجديدة بين اليمن والمملكة العربية السعودية التي تم مؤخراً فقط الاتفاق عليها وترسيمها من قبل لجنة مشتركة لم توضع على الخريطة. كما أن الجبال الشاهقة التي تحيط بنجران، وكذلك الهضاب المثيرة لعسير كانت أرضاً مجهولة. ووراء نجران يمد الربع الخالي غطاءه الرملي حتى عتبة اليمن نفسها. ولم تعبر سيارة حتى الآن تلك الرمال الرهيبة، وفي مكان ما على طول حافتها سوف أتبع الحدود الطبيعية، وأقرب من ذلك على

(١) جوزيف هاليفي. أستاذ الدراسات العليا بالسوربون، له رحلات في جنوبي البلاد العربية، وزار اليمن ستة ١٨٦٩م في ربي يهود اليمن، وزار نجران أيضاً وجمع أثناء رحلته ٦٨٦ نقشاً من كتابات قديمة، نشر ترجمتها وعلق عليها في المجلة الآسيوية. توفي سنة ١٩١٧م. عقيقي، المستشرقون ج١، ص١٩٩. بدول، برحلة الغربيون، ص١٥٦. (المراجعون).

الجلتب الثاني من نجران يقع وادي حبوناً^(١)، وهو أرض غامضة لم ترها عيون أوروبية قط. وأقرب من هذا وذاك تقع أودية تثليث المجهولة، وخميس مشيط في وادي بيشة، وأبها المدينة المشهورة في شمال عسير التي لم يزرها أي أوروبي على الرغم من أنها معروفة بصورة كافية للأتراك. كل هذا إقليم بكرٌ سوف أراه في جولاتي القادمة - وسوف أملاً عينيَّ بكل شبر منه. وكان مجال الرحلة هائلاً في إمكانياته. واحتمالات إنجازاتي لا يمكن أن تقاس إلا بأبعاد حائلة. ومع ذلك، وفي الحقيقة الماثلة للعيان وأنا في حالة الوعي فإن نتائج رحلتي الممتدة لتسعة شهور مقابل الخمسة التي كانت مقترحة لبرنامجي - قد تجاوزت تقديري الأول المتفائل بقدر عظيم.

وكان هناك إمكانية واحدة فشلت تماماً في وضع احتمال لها، وهو احتمال لم يظهر أبداً في حدود مجال رؤيتي، ألا وهو «علامات الشرف والرفعة لمدينة ضبابية في الفضاء والنور». فلم يدر بخلدي أبداً أنه، بالإضافة إلى شبة ستكون أرض سبأ أو أرض أر ضمن نطاق تجولي. وقد وضعت الظروف كليهما في متناول يدي، ليتوجأ معاً قمة موضوع هذا الكتاب، ويقدم لي عنوانه. فسوف أرى في الحقيقة بنات سبأ، وأهم مدينة مأرب نفسها، التي لم تعد جميلة كما كانت في الأيام الخالية، إذ أصابها التجاعيد بفعل الزمن والإهمال، مهجورة بين الفيافي والقفار، أشلاء ممزقة لاسم كان عظيماً ذات يوم، وتتأمل بوهن وضعف في الكنوز الدفينة من تاريخها التليد. ولكن من خلال كنوزها وبؤسها الحاضر استطعت أن أستشف الروح الرائعة لمجدها العتيق. وسوف أرى البقعة نفسها التي تجلس عليها «الملكة» العظيمة التي ما زالت تذكرها الروايات في ثلاثة أديان سماوية عظيمة على الرغم من أن التاريخ قد نسيها أو لم يكتشفها بعد، بكل حُلِيِّها وزخارفها ذات الروعة الإمبراطورية الفاتنة، وجماعة

(١) حبوناً: واد يعد أكبر واد في المنطقة بعد وادي نجران، واسمه القديم حبونن، وينطق الآن حبوناً والبعض يسميه حبونن (بالهاء)، وهو خطأ، وحبوناً الآن محافظة تابعة لمنطقة نجران. أشار البلادي إلى بعض قرى حبوناً وروافد واديه. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ١٩٩-٢٠٦. (المراجعون).

الفيلة، وسرايا حملة الرماح، ومظلة الهدهد الذهبية والسوداء لتظلها من وهج شمس الصحراء أثناء رحلتها الرومانسية للملك سليمان. وسوف أسير أيضاً في طريقتها: طريق الفيل، ممتطياً مركبة حديدية لم يُر مثلها في أرض سبأ حتى وقتي هذا.

إن رحلتها، قد تكون في الحقيقة منافسة لرحلتي أنا كأول رحلة محفوظة أو مدونة لعبور الجزيرة العربية بالطول. والشخص الثالث الآخر الذي يحتمل أنه قد فعل الشيء نفسه هو إيلوس جالوس الذي أرسلته الإمبراطورية الرومانية بعد عهد هذه الملكة بألف عام لضم أراضي البخور للإمبراطورية. ولكن جالوس - الذي كان مصراً على تدمير الاكتفاء الذاتي الاقتصادي لبلاد العرب السعيدة، لم يصل إلى أبعد من، حسبما يخبرنا بلييني، كاربتا (وربما تكون خربات أو خربة أبي السعود)، وفقد معظم جيشه في رمال الصحراء الكبرى أثناء رحلة عودته المشؤومة^(١). ومن ناحية أخرى، يعتقد أن بلقيس كانت على دراية كافية بالبحر الجنوبي، ويبدو أنها قابلت سليمان في تدمر. ومن اللطف في الحكم على الناس أن نفترض على الأقل أنها، مادامت قد وصلت إلى هذه النقطة البعيدة، لم تولّ ظهرها عائدة دون أن تلقي نظرة على لبحر الداخلي، وربما قامت بزيارة ابن عمها، حرام (Hiram) ملك صور. وهكذا تظن بلقيس منافستي الوحيدة^(٢). والنظرة التي اختلستها على بيتها قد أثارت في شعوراً ودياً

(١) كانت حملة إيلوس جالوس، سنة ٢٤ ق.م، واعتمد في دخوله الجزيرة العربية على حلفائه النبط وصلت هذه القوة إلى نجران واستولت عليها ثم تقدمت جنوباً إلى مأرب. ولم يجد مقاومة في طريقه ثم حاصر مأرب ولم تسقط في يده لخصانتها، مما دفعه إلى العودة على أعقابها، وقد كانت حملة فاشلة لم تحقق حداثها في احتلال بلاد العرب السعيدة مصدر التجارة والثراء في العالم القديم. انظر بافقيه: تاريخ اليمن القديم ص ٧٤-٧٧. (المراجعون).

(٢) من خلال هذا الكتاب سلاحظ أن المؤلف يخوض في بعض الأحيان بالحديث عن سليمان -عليه السلام- وعن بلقيس. ولنا بحاجة للتنبيه إلى أن فيما يذكره الكثير من المغالطات التاريخية أو الدينية لاعتماده في ذلك على الأساطير أو الروايات الإسرائيلية. وما نعتقه ونعتمد عليه مصدراً موثقاً في هذا الجانب هو ما ذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأنبياء وأتباعهم. (المراجعون).

تجاه شخصيتها، واهتماماً غريباً بحياتها الخاصة. وتقدمها التقاليد لنا، طبقاً لانحيازها المحي، على أنها الجدة الأعلى لاثنتين من الأسر الحاكمة، واحدة قد انقرضت منذ زمن طويل، والأخرى قضى عليها الغزو الأجنبي. والقصة العربية تفند مزاعم الأثيوبي. وهذا الأخير يكذب الشرير وينكر همس الفضيحة الذي أعطاه مادتها. وحفظت أوروبا في العصور الوسطى أو اخترعت رواية مغايرة للقصة والتي تميل إلى تنفيذ قصة بأخرى، وتطعن في زعم الأثيوبي بالانتماء إلى أصل سبئي. ويتقابل الشرق والغرب في قياس حكمة سليمان المشهورة أو ينكر احتمال وجود علاقة بينه وبين قوم سبأ. ولا يقدم الشرق إلا دليلاً مروياً لروايته التي جاءتنا عبر مئات الأجيال من المستمعين "للإذاعة العربية" وهم الرواة، أما الحكاية الغربية فقد كانت مكتوبة في الحجارة، وبقيت حتى يومنا هذا تتحدى أي ترجمة دقيقة لها.

إن هذا اللغز يمكن أن يكون ممتعاً إلى حد كبير لمؤلفينا الذين يشتغلون بقصص الخيال البوليسية، ناهيك عن قادة الشرطة الأكفاء في إسكوتلنديارد الذين يضحك الناس عليهم أحياناً. ويعود الفضل لاثينا نفسها، التي كنت أستغيث بها أثناء حيرتي بمجرد أن وطأت قدمي عتبة سبأ، بمعرفتي بالإجابة. فمثل كلب بوليسي سري، أو ربما بالأحرى مثل كلب سلوقي جميل من صحرائي، كانت اثينا تلاحق هذه الأحجية عبر الوثائق الترايبية في جبال الأوليمب. وهناك وجدت مفتاح اللغز -مفتاح سر سبأ- مختفياً بعيداً في سجل أحد المباني غير معروف ولم يعد له وجود للأسف. ولا يمكنني أن أفعل شيئاً أفضل من إيراد القصة كما هي بالفاظ مؤلفها - إميل مال حيث يقول:

"ولكن على بوابة سانت - بنين في ديجون . . . التي لم تعد موجودة اليوم - إلا أن دوم بالنشير احتفظ لنا بالصورة التي كانت عليها . . . يكتمل الزخرف (أي زخرف البوابة) بوجود ثلاثة تماثيل لملوك توراتيين وتمثال لملكة. وهذه الملكة

الغامضة ستكشف لنا هذه المرة عن سرها. بدراسة الرسم الخاص بهذه الملكة يلاحظ المرء أمراً كان من الصعب أن يصدقه لولا أن الشواهد القديمة كانت تؤكد: فالملكة المرسومة على بوابة سانت - بنين كان لها قدمي أوزة. هكذا صورَّ فنان ديجون هذه الملكة الشهيرة التي لم تكن سوى ملكة سبأ.

لفترة طويلة من الزمن نسج الخيال اليهودي كثيراً من القصص حول طلكة سبأ. في الشرق نُسجت حولها قصص أسطورية خيالية.

بكل هذه الملاحظات الطريفة أترك سر ملكة سبأ للآخرين يتصارعون فيه. وبينما كنت أجهز لبدء الرحلة فقط أعطيت وصفاً لكيفية تكوين رحلتي مع قصل إضافي عن نتائج ما جاءني من إلهامات أثناءها - البداية والنهاية لمسيرتي مع سبأ ولذلك لم يبق إلا أن أنغمس في صميم الموضوع مع تصوير موجز لبيانات خروجي الذي، كما سيرى القارئ في الفصل القادم، يبدأ على نحو مفاجئ وغير متوقع، بقدر ما يتصل الأمر بهذا الكتاب - في نجران، بعد أكثر من ثلاثة شهور من افتراقني عن الملك في آبار (المحدثه) وربما كان هناك كتاب آخر يصور يوماً ما الطريق على حدود اليمن عبر المرتفعات العالية إلى البحر الأحمر بالقرب من ميدي ومن هناك عبر طريق الساحل مروراً بتهامة التي كانت مزدهرة يوماً ما إلى مكة المكرمة. وفي عام ١٩٣٢م عندما جئت من الربع الخالي حتى وادي الدواسر وبيشة عدت إلى مكة بطريق الفيل الذي ذكرته من قبل ولذلك - في هذه المناسبة - أثرت أن أسير في طريق السيارات العادي. ومشيت في دائرة واسعة، بدأت أولاً بالاتجاه للشرق خلال احة الخرمة، ثم صوب الجنوب بطريق وادي رنية إلى بيشة حيث أخذت طريق الفيل من هناك مرة أخرى. وحتى بيشة، لم تكن المنطقة التي مررت بها معروفة لأي فرد من البشر غيري. فقد غطت رحلاتي عام ١٩١٧م و١٩٣٢م و١٩٣٤م معظم هذه

الأرتمس ونتج عنها رسم خرائط لها. وكانت بيشة ورنية بالإضافة إلى زيارتي لهما، قد ارهما رجل ألماني في عام ١٩٣٠م يُدعى ليوبولد فايس^(١) والذي لم يكن على أي حال مجهزاً بطريقة مناسبة للعمل الجغرافي الجاد، ولم ينشر في حدود علمي أكثر من بعض الرسومات الصحفية البسيطة لرحلته في هذه الأصقاع. وأجد لزاماً عليّ أن أذكر أيضاً أن السيد لاركن وربما آخرين غيره من «شركة التعدين العربية السعودية» قد تفحصوا المرتفعات في جنوب الطائف حتى صفير وجحيفة شمال - غرب بيشة في عام ١٩٣٦م بحثاً عن الذهب. وعلى أي حال لم ينشر وصف أو تُرسم خريطة لهذا الجزء الشيق من الاستكشاف.

وفيما وراء بيشة، عبر خيبر الجنوب وخميس مشيط إلى أبها ومرتفعاتها التي تكسوها الغابات، ومن هناك بطريق أودية تثليث حتى حبونا ونجران كانت تلك المنطقة لم تستكشف بالكامل بعد وإن وجدت لها خرائط على الإطلاق، فهي من نسج الخيال الذي يعتمد على دليل سماعي من الدرجة الثالثة. ومن المدهش حقا أن الأتراك، الذين لهم باع طويل في الاحتلال العسكري والإداري لأبها، لم يفكروا أبداً أنه من المجدي أن يعدوا خريطة معقولة لمنطقة عسير. والمشكلة هي أن الخرائط ليس لها قيمة نقدية إلا في زمن الحرب. والخرائط الحبشية - مهما كانت سيئة - كان لها رواج طيب في عامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦م عندما كانت أجهزة المذيع والصحف تعج بالزيارات الأثيوبية. أما الخرائط العربية فما زالت تشكل الاهتمام عند الخبراء الواعين،

(١) ليوبولد فايس (١٩٠٠-١٩٩٢م) مستشرق نمساوي وليس المانياً أسلم وتسمى بمحمد أسد كتب عدداً من الدراسات معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وترجم صحيح البحاري، وله كتاب الطريق إلى مكة وكتاب الإسلام على مفترق طرق وغيرهما. انظر: العقيلي، المستشرقون، ج٢، ص٢٩١، (الراجعون).

على الرغم من أنه كانت ستواتيهم فرص سانحة لإظهار براعتهم في عام ١٩٣٤- لو كان هناك مسرح لعمليات الحرب على الحدود اليمنية. ياله من قاتل شرير: أدعو الله أن تظل الجزيرة العربية دائماً وأبداً خالية من المشاعر التي تبدو أنها وحدها تعزز الناس في أحاسيسهم. إن الذين يستطيعون أن يصمدوا لوجبات مشبعة من الطبوغرافيا الجافة خالية من البهارات سوف يجدون الكثير من طبعي هنا. في نوعيته وكميته يكمن ادعائي الرئيس بالشهرة، وإذا كنت قد غفلت هنا وهناك أثناء تأدية واجبي فإنني أستطيع بالتأكيد أن أطالب النقاد بأن يغفروا لي ذلك لأنني، طول الوقت الذي قضيته كله بالجزيرة العربية -كنت أعمل بمفردي، وأشعل السراج حتى منتصف الليل «لأترك ملذات الحياة وأعيش أيام الجد والكفاح».

وقد كانت بعض هذه الأيام مليئة فعلاً بالعمل أجاد والشاق، ولكن هذا العمل الشاق كان لذيذاً وممتعاً بدرجة كافية، لاسيما في تلك الأماكن مثل نجران حيث تمت أمشي على خطي هالفي تماماً. مثل امرأة في عنفوان شبابها، هادئة وواحدة في تذكرها للمشاكل الماضية، ولكنها تواجه بسرور ما تبشر به أيام السلم من وعود تحت رعاية الحاكم الجديد^(١). ويمتد شريط عريض من الرمل الأبيض مثل الثلج، كخيخيك به ثوب متباين الألوان فهناك الأخضر الفاتح لمروج الحلفا يلقي ظلاله على لون الدخن الفاتح والداكن في آن واحد. كما أن هناك اللون الأخضر الداكن لأشجار النخيل التي تخفي البيوت الريفية الشبيهة بالقلع - وعلى كلا الجانبين تنض الأهداب العظيمة للجرف السوداء التي يكسو قمتها شريط وعر من الصخور الرملية ذات اللون الخمري. ولم أر شيئاً أجمل منها في جميع أنحاء الجزيرة العربية. ولن

(١) يقصد هنا - حكم الملك عبدالعزيز - رحمه الله-. (المراجعون).

أسمى أبدأ مشهد ذلك الوادي الساحر وهو يتدثر بضباب الصباح أو عندما يضيء بنور خات، في حرّ ظهيرة الصحراء أو عندما تتوهج الجبال الغرابيب السود حتى نصير بيضاء براقعة في الشمس الدانية، أو تحمر خجلاً مرة أخرى بنعومة ورفق في أشعة الغروب المائلة، إلى أن تسمي ذات لون أبيض وأسود تحت ستار الليل. ويوماً بعد يوم ولدة شهر الآن، وشهر آخر أثناء عودتي من أرض سبأ كنت أكحل عيني بهذا الوادي العظيم الذي ينساب عبر الجبال حتى بحر الرمال، ذلك الذي يدعى «الربع الخالي». ويوماً بعد يوم كنت أتطلع عبر النهر إلى تاج المجد التليد، إلى المباني الأثرية المتهدمة لنجران.

وفي قلبي تقف نجران، عظيمة في حجمها وأهميتها. ولكن أسباب اعتقادي ذلك يجب أن تبقى حبيسة لأبوح بها في كتاب آخر. وربما يقوم الجراف ذات يوم بكتف جميع أسرار سبأ، حتى تتمكن من تقدير القيمة النسبية لمناطقها المختلفة ومكانها في تاريخ إمبراطورية طواها النسيان. وحتى ذلك الوقت نستطيع فقط أن نقترح بعض الرسومات الابتدائية لثملاً الفراغات الضخمة في الخارطة التاريخية. وعندما حان وقت ركوبي للخروج من نجران بعد هذه الأسابيع الأولى التي قضيتها تحت سقف الجود والكرم لإبراهيم النشمي أميرها^(١) - كنت قد ملأت أوراقي فعلاً بالكثير من المواد التي يمكن فهمها واستيعابها على مهل.

(١) هو إبراهيم بن عبدالرحمن بن إبراهيم النشمي من رجالات الملك عبدالعزيز المعروفين. ولد في شقراء عام ١٣١٢هـ واشتغل بالتجارة خاصة تجارة السلاح وعن طريقها تعرف على الملك عبدالعزيز، تولى عدداً من مهام منها إمارة ينبع البحر، ونجران والخرج واستمر على مكاتته حتى توفي -رحمه الله- عام ١٣٩٨هـ. لمزيد انظر: مجلة الدرعية، العدد الأول والثاني المحرم، ربيع ١٤١٩هـ، مقالة عن إبراهيم النشمي بقلم الدكتور عبداللطيف بن محمد الحميد. (المراجعون).